(بين الطمأنينة والإيمان)

خاف الناس وارتاعوا، بعد هذه الأحداث المتلاحقة والأخبار المتعاقبة، وفيها ما فيها من الآلام والكربات والبأساء والضراء والزلزال والهزات، ونحن ناس من الناس، يصيبنا ما يصيبهم ويخيفنا ما يخيفهم، وليس الخوف بمستنكر من هذا الإنسان الضعيف ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، فنحن نفرح للخبر السار ونهتم للخبر الأليم، ننشط عند المسراتِ ونخاف عند المفزعات، وقد امتحننا الله بالخوف فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

ولكن إلى جانب خوف المؤمن يقف إيمانُه بعون ربه، ويقينُه بلطفه، وثقتُه برحمته، لينتشله من الهلع والجزع.

فهو يخاف ولكن لا يلبث أن يطمئن إلى سعة رحمة الله؛ لأنه مؤمن بذلك، وها هو القرآن يحكي لنا حال الصحابة رضوان الله عليهم عندما خافوا عدوهم يوم بدر ويحكي طمأنة الله تعالى لهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

فالمؤمن يخاف لكن لا يلبث أن تطمئن نفسه لمعونة الله له؛ لأنه مؤمن بذلك، وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوماً قال: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ**» [أبو داود] فالمؤمن يخاف ولكن لا يلبث أن يطمئن إلى قضاء الله وقدره؛ لأنه مؤمن بذلك.

سكون الجوارح والنفس والقلب يعين المرء على التفكر والتفكير، ويساعده في البحث عن الأسباب التي تعينه على الخروج من الضيق والكربات، ولكن الذعر والهلع والجزع يشوش الفكر ويعطل التفكير ويفسد بدل الإصلاح.

فكم من أناس سقطوا من التدافع وتضرروا لما أرادوا الهروب من مخوّف، ولو سكنوا لنجوا جميعاً، وكم من أناس أصيبوا بقلق أو اكتئاب من جزعهم من توقع حصول مزعج، ولو سكنوا لسلموا، وكم من أناس مرضوا عضوياً أو نفسياً من هلعهم وذعرهم، فالطمأنينة منجاة والجزع مهلكة.

ومن هنا عزز الإيمان الطمأنينة عند معتنقيه، وعلمهم ما يزيدها ويدعمها، فأول ما يبث الطمأنينة في القلب الإكثار من ذكر الله تعالى: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

ولئن كانت المخاوف تحيط بالقلوب فتتعبُها، فإنَّ ذِكرَ الله راحة كلِّ متعَبٍ، ودواء كلِّ عليل، وفي الله عوضٌ عن كلِّ تلف.

وثاني ما يثبت الطمأنينة في القلب تلاوة القرآن الكريم وفهمه والعمل بما فيه، فهو الصراطُ المستقيم، وهو الشفاء النافع، عِصْمة لمن تمسّك بهِ، ونجاة لمن اتّبعه: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

وثالث ما يبث الطمأنينة في القلب الصلاة والدعاء: «**أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلال والإكرام**» [الترمذي] وأخرج عن حذيفة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى.

هذا حديثي لكم بين الطمأنينة والإيمان، واذكروا أنكم موعودون من ربكم بالاستخلاف في الأرض وبتمكين دينكم وبانتشار الأمن بينكم على أن تتحققوا بحقائق الإيمان وتشتغلوا ما حييتم بالعمل الصالح.

والحمد لله رب العالمين